﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ٦٦﴾

[الحجر: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحذَرُ وتَحَرّي الوقتِ المناسبِ في الخروج من أرضِ القومِ المجْرمين

لمّا تقرّرَ بهذا أمرُ إهلاكِهم من غير تصريح ولا تعيينٍ لوقتٍ عيَّن في هذه الآية توقيتَ إهلاكِهم[1]. وأيضًا لمّا تكلَّمَ في الآيات السّابقة عنِ النّاجين أتبعَه بالكلامِ عن ما وقعَ لِلكافرين المُنحرفين؛ لأنَّ النّجاةَ إنّما تكونُ من عذابٍ أو ضُرٍّ مُتوقَّعِ الوقوع.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَابِرَ﴾: أصلُ (دبر): يدلُّ على آخرِ الشَّيْءِ وخَلْفِهُ، وهو خلافُ القُبُلِ، يُقالُ: دَبَرَ النَّهارُ وأَدْبَرَ: إذا جاءَ آخرُهُ. وَقَطَعَ الله دابِرَهُمْ، أي: آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وعليه الدَّبارُ: أي انْقطَع الأثَر[2]. والدّابرُ مِنَ السِّهامِ: الَّذي يَخْرُجُ مِنَ الهَدَفِ، كأنَّهُ وَلَّى الرّاميَ دُبُرَهُ[3]. والدّابرُ: آخِرُ القَوْمِ، وآخِرُ الأمْرِ[4]. والتَّدْبيرُ: أنْ يَنْظُرَ الإنْسانُ إلى ما تَصيرُ عاقِبَتُهُ وآخِرُهُ، ويُطلَقُ الدُّبُرُ أيضاً على الظَّهرِ[5]. والمقصودُ بالدّابرِ في الآية: الآخِرُ، أي: آخِرُ شَخْصٍ[6].

2) ﴿مَقْطُوعٌ﴾: أَصْلُ القَطْعِ: فَصْلُ وَإِبانَةُ الشَّيءِ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا وَقَطيعَةً أيْ فَصَلْتُهُ، وضِدُّهُ الوَصْلُ، والقطع: البَتْرُ، تقولُ: قَطَعْتُ العُضْوَ إذا بَتَرْتَهُ. والقِطْعَةُ: الحِصَّةُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/73.
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (دبر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/65.

المَفْصولَةُ مِنْ شَيْءٍ، ويأتي القَطْعُ بِمَعْنَى الهَجْرِ والتَّفْريق، والتَّقاطُعُ: التَّهاجُرُ، وَمِنْ مَعاني القَطْعِ أيْضًا: البَتُّ والقَصُّ والعُبورُ[1]. والمقصودُ بالقَطْعِ في الآية: الإزالةُ. وقطعُ الدّابِرِ كِنايَةٌ عَنْ ذهابِ الجَميع.

3) ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾: أصلُ (صبح): أصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو لَوْنٌ مِنَ الألوانِ، قالوا: أصلُهُ الحُمْرةُ، وقالوا: وَسُمِّيَ الصُّبْحُ صُبْحًا لِحُمْرَتِه، كما سُمِّيَ المِصباحُ مِصْباحًا لِحُمْرَتِهِ[2]. والصُّبْحُ: أوَّلُ النَّهارِ، يُقال: صَبَّحْتُ الرَّجُلَ: إذا أتَيْتَهُ أوَّلَ النَّهارِ، وأصبحَ القَوْمُ: إذا دخلوا في الصَّباحِ[3]، والصَّباحُ: نورُ النَّهارِ[4]. ويُطْلَق عليه: الفَجْرُ، والغَداةُ، وضِدُّه: المساءُ وجَمعُه: أَصْباحٌ[5]. والمقصود بالصُّبْحِ في الآية: أوَّلُ وَقت النَّهار. والمرادُ: داخِلينَ في الصَّباحِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الحقُّ تعالى: ووجَّهْنا إلى لوطٍ ذلك الأمرَ، وأفضَيْنا إليه بما فيه، وذلك عن طريق الوحيِ بوساطة هؤلاء الملائكة، أنَّ جميعَ قَومِه مُهلَكونَ عن آخِرهم هَلاكَ استِئصالٍ مَطْلَعَ صَباحِ لَيلتِهم[6].

قَضاءُ الله تعالى لا مَـرَدَّ لـه، وعـذابُه يُهلكُ رائدَهم، ويقطعُ دابرَهم

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾:

هذه الواوُ استئنافيةٌ، أي لاستئنافِ الكلامِ فيما أوحَى اللّٰه تعالى به إلى لوطٍ، ممّا حكمَ به على قومِه من وقوعِ العذاب عليهم، لِيَستأصِلَهم جميعًا.

مَن أهلكَه الله بالقاضِيةِ، لم يبقَ منه باقيةٌ

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبح).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صبح).
(6) الواحدي، الوجيز، ص: 594، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39.

بَلاغةُ التّضمين في قولِه: ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾:

لمّا تعدَّى الفعلُ (قَضَى) إلى مفعولِه بحرف الجرّ (إلى) دلَّ على أنَّه تضمّنَ معنى (أوحى)، ليفيدَ اللّفظُ الواحدُ معنيَيْن مقصودَين، هما الإيحاءُ الذي يفيدُ أنَّ الأمرَ من عندِ اللّه والقضاءُ الذي يفيدُ معنى القطعِ في الأمرِ وتهويلِ ما حكمَ به، ففي التّضمينِ تكثيرُ المعنى بتقليل اللّفظ، أي: وقضينا إليه ذلك الأمرَ وأوحينا إليه أنَّ دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصبحين، والمعنى: وأوحينا إليه ذلك الأمْرَ مَقضيًا مُثبتًا مبتوتًا[1].

الإيجازُ بتقليلِ اللّفظِ، وتكثيرِ المعنى، مفيدٌ في البيانِ عنِ المرادِ

فائِدةُ مجيءِ (نا) في قولِه: ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾:

أفاد التّعبيرُ بالضّميرِ (نا) تعظيمَ ما قضى اللّه تعالى به من استئصال القومِ وإهلاكِهم، وأنَّه أمرٌ لا يقدرُ عليه إلّا الملك الواحدُ الأحدُ.

نزولُ العذابِ بقومٍ لا يقدرُ عليه إلّا الله الواحدُ القديرُ

بَلاغةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾:

لمّا تقدّمَ الجارُّ والمجرورُ أفاد تخصيصَ لوطٍ عليه السلام بالإخبارِ عن استئصالِهم اهتمامًا بشأنه عليه السلام ورعايةً لحقِّ الرّسالة التي اخْتُصَّ بها عن قومِه، وتخصيصُه بالإخبار المذكورِ لئلّا توهنَ نفوسُ أتباعِه عند الخروج حين يعلمون باستئصالِ قومِهم فيَحزنون لهم.

تخصيصُ لوطٍ عليه السلام، بالإخبارِ عنِ استئصالِ قومِه

فائِدةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

لمّا كان ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمَ إشارةٍ منَ المبهمات، وكان للبعيد، أفادَ التّعبيرُ به تهويلَ ما قضى اللّه به، وتعظيمَه وتفخيمَه، لبُعدِ مرتبتِه[2].

تهويلُ العذابِ على القومِ المُجرمين المُنْحَرفين

فائِدةُ مجيءِ قولِه: ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾:

يحتملُ أن يكون بدلًا من ﴿ذَٰلِكَ﴾ وهو الظّاهرُ، كما يحتملُ أن يكون عطفَ بيانٍ له، وعلى كلا الوجهَين يفيدُ اللّفظُ تعظيمَ اسْمِ

تفخيمُ شأنِ الأمرِ الّذي جرى قَدَرًا، على قومِ لوطٍ العُصاةِ الفجَرة

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/452، والزمخشري، الكشاف: 2/584، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/65.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/186، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/185.

الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ وتفخيمَه؛ لأنَّ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ منَ الأمور بمعنى الشّأنِ العظيم، فتتنبَّهُ الأنفسُ لمعرفتِه وتتشوّقُ لبيانِه(1).

دَلالةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلْأَمْرَ﴾:

أمرُ الله قدَرٌ لا يُغالَبُ، وإذا جرى على قومٍ استَأصلَ شأفَتَهم

(ال) هنا جنسيَّةٌ، لِتعظيمِ شأنِ العذابِ الّذي يقعُ عليهم فيَستأصلُهم، فكأنَّ كلَّ ما أوحى اللّه به إلى لوطٍ، هو الإخبارُ عن عذابِهم واستئصالِهم، لهولِ الأمرِ وعِظَمِ شأنِه.

دَلالةُ المصدرِ المُؤوَّلِ في الآيةِ:

استِحقاقُ العذابِ العظيمِ، للقومِ المُنحرفين الشّاذّين

قولُه تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، وقد أفاد التّعبيرُ بالمصدر المُؤوَّلِ أنَّ الأمرَ الذي قضاه اللّه تعالى هو قطعُ دابرِ هؤلاء القوم من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصْفٍ آخرَ مقترنٍ به، أي من كثرتِهم أو قلَّتِهم أو كونِهم من قوم لوطٍ أو غيرِ ذلك، ففي التّعبير بالمصدر المؤوَّلِ تحصينٌ منَ الإشكال في الفهم وتخليصٌ له من شوائبِ الإجمالِ في الوصفِ، ولمّا كانَ المصدرُ المؤوّلُ بصيغة الجملةِ الاسميَّةِ أفاد ثبوتَ وقوع العذابِ وتحقُّقَه.

بَلاغةُ الإطنابِ في سياقِ الآيةِ:

تفسيرُ العذابِ، إيذانٌ بعظَمِه وشِدّتِه على القومِ المُنحرفين

قولُه تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، وفيه أنّه لّما كان قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ مبهمًا، فسَّره بطريق الإطناب بالمصدر المؤوّل ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ ليكونَ بدلًا من اسم الإشارة على القولِ بأنَّ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ بدلٌ من اسم الإشارة، وإن كان ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ عطفَ بيان كان المصدرُ المؤوّلُ بدلًا منَ الأمر، أو تفسيرًا له، وإنّما جاء بطريق الإطناب؛ لأنَّ المقام مقامُ تفخيمٍ للعذاب وامتنانٍ على النّاجين، ففي مجيء التّفسيرِ بعد الإبهام زيادةٌ في تعظيم الأمرِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/186، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/65.

وتفخيمِه، والاهتمامِ بشأنِه، وهو أوقعُ في النّفسِ، وكأنّه لا طريقَ إلى إدراك عِظمِ العذابِ إلّا بالوصول إليه بالتّدريج[1].

بَلاغةُ تتابُعِ الكنايةِ في سياقِ الآيةِ:

قطْعُ الدّابرِ بمعنى إهلاكِه، واستئصالِه وقطْعِ نسْلِه

قولُه تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾، لمّا كان الدّابرُ هو آخرُ شخصٍ من القومِ كان الإخبارُ عن قطعِه كنايةً عن هلاكِهم واستئصالِهم جميعًا حتى لا يبقى منهم أحدٌ؛ لأنَّ قطعَ الدّابرِ لا يكونُ إلّا بعدَ الإتيانِ على من تقدَّمَه، ولا يقطعُ الدّابرُ حتّى يُقطعَ ما دونَه؛ لأنَّ العدوَّ يكون مستقبلًا لعدوِّه، وإذا قطع ذلك وأتى عليه فقد أتى العذابُ من أولِّهم إلى آخرِهم، وفي الكناية عنِ استئصالِهم كنايةٌ أخرى عن قطعِ نسلِهم[2].

دَلالةُ اسْمِ الإشارةِ في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

الاسْتِئصالُ وقطعُ النّسْلِ، عذابُ الشّاذّين عنِ الفطرةِ النّقيّةِ

عبِّر باسْمِ الإشارةِ لتحقيرِهم وللتّنبيهِ على أنَّ العذابَ المَهولَ بالاستئصالِ على هؤلاء هو يسيرٌ في قَدرتِه سُبحانه[3] ولِتَمييز الذين وقعَ عليهِمُ العذابُ أكملَ تَمييزٍ وللإشعارِ بأنَّ وقوعَ العذاب عليهم لِما اتّصفوا به منَ الصّفاتِ القبيحةِ المُنحرفةِ التي عليها مدارُ الحُكمِ، أي دابرُ هؤلاءِ المُجرمين، ولهذا لم يقل (وقضينا إليه أنَّ دابرهم مقطوع)[4].

نُكتةُ التّعْبيرِ بصيغةِ ﴿مَقۡطُوعٞ﴾:

استِئصالُ القومِ المُنحرفين، يسيرٌ عندَ الله تعالى

عبِّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعول؛ للإيذانِ بعظمةِ اللّه تعالى وسهولةِ عذابِهم واستئْصالِهم عنده سُبحانه، كما أنّ إيرادَ صيغةِ المفعول بدلَ صيغةِ المضارع (يُقطعُ) أدخلُ في الدّلالة على الوقوعِ والقطعِ به[5].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/584، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والعصام الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص المفتاح: 2/83.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/453، والزمخشري، الكشاف: 2/584، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/368، والفخر الرازي: مفاتيح الغيب: 19/154، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/73.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 11/73، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85.

بدايةُ نزولِ العذابِ عليهم، وقتَ الدّخولِ في الصّباحِ

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾:

عبِّرَ بلفْظِ ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ ليكونَ بمعنى داخلين في أوّل وقت الصّباح، فإنَّ همزةَ (أصبحَ) الدّخولُ في الشّيء؛ لأنَّ اللّفظ مُشتقٌّ من أصبح التّامّة.

أعظمُ العذابِ، ما كان ظاهرًا للعيانِ، أمامَ المُعذَّبين

دَلالةُ الحالِ في قوله: ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾:

أفاد مَجيءُ ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ حالًا[1] أنَّ قطعَ دابرِ هؤلاء القوم في حالِ دخولِهم في الصّباح وظهورِه، فيكونُ العذابُ أشدَّ عليهم؛ لأنَّه يكونُ أظهرَ في العيانِ وأوّلَ أمرٍ يلاقونَه بعد استيقاظِهم، ومَبْدَأُ الصَّباحِ وَقْتُ شُروقِ الشَّمْسِ ولذلك قالَ بَعْدَهُ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ۝٧٣﴾ [الحجر: 73][2].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/155، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/187.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.